حول كتاب "تأملات وجودية"

بين الفلسفة والشعر

بقلم معن زيادة

بعد ان قرات « تأملات وجودية (١) للدكتور زكريا ابراهيم ، اجدني امام ما ارتآه بعض الفلاسفة مثل هويتهد من ان الفلسفة لاتستطيع ان تضرب بعرض الحائط تجارب الشعراء ونظراتهم ... فكثيرا مايكون الشاعر اصوب نظرا ـ فيما يتعلق بالحقائق ـ من العالم ، وكثيرا مايكون الشعر ابلغ واصدق من التصورات العلمية التي تستند الى الحجج والبراهين..

ان موقف هويتهد هذا يرجع الى وجهة نظره في ان الفلسفة يجب ان تكون وصفية لاتهتم بالادلة والحجج بقدر ماتهتم بالتجربة المباشرة والوجدان فيقوم وضوحها على الحدس باعتبارها حقائق بيانها بذاتها غير خارج عنها ... فالفلسفة كالشعر يمكن وضعها في مقابل العلم ، واذا كان العلم لايعطي اهمية كبرى للقيم وللمعاني المكتشفة بواسطة التجربة الحية ، فان الفلسفة ـ عند هويتهد ـ تستطيع ان تتجاوز حدود العلم وان تنفذ الى صميم الوجود بواسطة قيم الطبيعة التي يمكن اعتبارها الطريق الوحيد الموصل الى الحقيقة .. وعلى هذا فقد عمل هويتهد على الاستفادة من تجارب كبار الشعراء الفنية واحساساتهم بالقيم بغية فهم الطبيعة وتفسيرها ..

قلت ان قراءة « تأملات وجودية » قد ذكرتني بوجهة نظر هويتهد في التقريب بين الفلسفة والشعر ، وسبب ذلك هو هذا الاعتماد الواضح في التأملات على التجربة الذاتية والمعاناة الشخصية الداخلية بدليل قول المؤلف : « اذا كنت قد اطلقت على هذه الخطرات اسم « تأملات وجودية » فذلك لانها في صميمها تعبير عن تجربة حية عشتها انا من الزمن ، وان كنت لا استطيع ان ادخلها في اطار اي مذهب وجودي بعينه » .

والحق ان كتاب تأملات وجودية ، دفاع حار غير مقصود عن وجهة نظر هويتهد سالفة الذكر .. صحيح انه قد يكون في طبيعة التأمل مايبعد به عن كل دعوى وضعية، وما يبعد به ايضا عن الادلة والبراهين والحجج العلمية والمنطقية ، الا ان هذا لاينفي ان الفلسفة قد اقتربت هنا من الشعر وابتعدت عن كل ما يصطبغ بالصبغة العلمية .. والدليل على ذلك هو هذا التباين الواضح في الاراء ، وهذا التعدد في وجهات النظر حول كل قضية فلسفية ، دون ان نملك القدرة على الفصل في هذه الاراء ووجهات النظر.

في تذييل المؤلف الدكتور ابراهيم ـ مثلا ـ وتناوله لمشكلة العدم ، يعرض لنا آراء بعض الفلاسفة في هذه المشكلة ، ونحن عندما نطالع هذه الاراء نتقبل بعضها ونرفض بعضها ، ولكن قبولنا ورفضنا يقومان على مايشبه التسليم او الايمان او المحبة ، قبل ان يقوما ـ عكس العلم ـ على الادلة والبراهين ، وكاننا بصدد ذلك الذي يحاول التدليل على وجود الله وصدق الاديان بشتى الاساليب والطرق ، ولكنه في النهاية لايجد امامه سوى التسليم القلبي والوجداني .. الخ .. وكثيرا مافكرت اثناء قراءة الفقرة الاخيرة في الكتاب المتعلقة بتجربة الظلام ،ان اتحدث عن تجربة الصمت مثلا او الثرثرة او الضحك الخ .. وانا على يقين تام من ان حديثي لن يختلف عن كلام الشاعر الذي يتحدث عن تجاربه الخاصة ـ كما هو الحال في كتاب تأملات وجودية ـ لان الحديث عن مثل هذه التجارب كالحديث عن اللذة والالم يصدر عن المعاناة الذاتية والتجربة الخاصة المباشرة ، دون ان ييسر سبل الدراسة الموضوعية العلمية ؟ فكل منا يشعر باللذة والالم دون ان يستطيع الاخر مشاركتنا هذا الشعور ، بل قد يختلف الاخر معنا في هذا الشعور ، فالبعض يشعر بالخوف او العمق او الخشوع والتسامي .. الخ .. امام تجربة الظلام ـ على سبيل المثال ـ في حين ان البعض الاخر لايجد في هذه التجربة اكثر من مجرد ظاهرة طبيعية غير جديرة بالتأمل الفلسفي .. فشعورنا تجاه اية تجربة من هذا النوع يصدر عن نفسياتنا المتعارضة وثقافاتنا المتباينة .. الخ . فنحن امام تجربة الظلام كما نحن امام منظر غروب الشمس قد يجد فيه المحب مايثير كوامن نفسه العاشقة ، وقد يجد فيه الحزين او الفاشل مايتعارض مع احساسات العاشق، دون ان نستطيع التوصل الى حكم جازم .

فاذا عدنا الى المشكلة الرئيسية التي تتعرض لها التأملات ، وهي مشكلة الموت ، وجدنا ان آراء الدكتور زكريا ابراهيم حول هذه المشكلة ، ليست الا عبارة عن خواطر شعرية ، تعرض للانسان في لحظات تأمله دون ان تأخذ صفة القضايا العلمية الصادقة التي يقرها العلم ويعترف بها ويدلل عليها .. يقول الدكتور ابراهيم « ص ١٠٦ » « الحق ان اهتمامي بمشكلة الموت لايعني انني اعلق اهمية كبرى على وجودي الخاص ، فان « موتي» ليس هو المشكلة ، بل موت « الانت » او موت الكائن المحبوب الذي لايمكن ان اتحدث عنه بضمير الغائب »

وهنا نلاحظ ان هذه القضية لا يمكن التحقق من صدقها او كذبها الا في الشعور الخاص لهذا الشخص او ذاك دون ان نستطيع الحكم عليها الا بالنسبة لي او لك ..

(١) منشورات دار الاداب ـ بيروت .

ولما كانت القضايا العلمية هي تلك القضايا التي يمكننا التحقق من صدقها او كذبها كما يحدث مع العالم في مختبره عندما يقوم بتجاربه ، فان هذه القضية هي اقرب الى القضية الشعرية منها الى القضية العلمية .. ذلك لان شخصا اخر قد يأتي ليقول لنا ان موت المحبوب او الانت ليس هو المشكلة ، بل المشكلة في موتي انا اولا وقبل كل شيء ، وهذا ماسيقره المؤلف في « ص ١٣٠ » حيث يقول : « اما تفسير الموت باعتباره جزءا لايتجزأ من نظام الكون ، بدعوى ان البقاء للنوع ، فهذا مالا يمكن ان يقنع به الوعي الفردي ، لانه لايمكن في نظري ان يكون الموت عملية تجديد للنوع فيها تستبدل الحياة بشيوخها شبابا يافعا وانما يجب ان نتذكر انني انا لست النوع ، فلا عزاء لي في بقاء النوع مادمت انا نفسي لن اكون » .

فبقاء « الهو » الاخرين ، وبقاء « الانت » المحبوب لاينجح في ادخال العزاء الى نفسي كما لايستطيع اقناع الوعي الفردي للانسان ، ومع هذا فقد يقول قائل ، ان موت المحبوب ليس مشكلة وان موتي ايضا ليس مشكلة ـ من حيث هو انتهاء للاحداث الطبيعية التي تعرض للانسان ومن حيث هو مفارقة الجوهر المفكر للمبدأ الفاني ، وهو الجسد ـ فالموت لايحمل مايخيفنا ويرهبنا بل ان الذات ـ كما في التأملات « ص ١٣٨ » ـ « حين تدرك حقيقة تأصلها في الوجود فانها عندئذ سرعان ماتتحقق من انه ليس في الموت اي تهديد ذي طابع ميتافيزيقي ، ومهما بدا لنا الموت واقعة نهائية ذات طابع حاسم فاننا لا بد من ان نشعر في قرارة ذواتنا بان لدينا نزوعا قويا نحو تحقيق ذواتنا وتخليد ذواتنا » .

عند هذه القضايا الثلاث ـ موت الانت ، وموت الانا، والخلود ـ وما تحمله من خروج على الموضوعية ومن تعارض وتناقض فيما بينها ومن عدم توفر امكانية اختبارها الخ .. عند هذا كله نقف لنؤكد ان قضايا الفلسفة التأملية ليست بالقضايا العلمية ، لاعتبارات كثيرة منها :

١ ـ عدم توفر امكانية اعتبار قضايا هذه الفلسفة ـ كما اسلفنا ـ

٢ ـ تناقض قضايا هذه الفلسفة ، فهي عبارة عما يبوح به الشعور ويخطر للنفس ، مما يعرض صدق هذه القضايا لان يوضع موضع الشك ، فهي تعتمد على النزوع الشخصي والاهواء والنزعات والرغبات ، في حين ان الحقيقة العلمية تختلف عن هذا كله ..

٣ ـ من الضروري ان تكون الحقيقة العلمية مستقلة عن قائلها فهي تقتصر على الجانب الموضوعي ، وليس لها علاقة بما هو ذاتي وخاص ، ولا يمازجها شيء من الميول والاهواء والقيم التي تقوم بها الاشياء .. وهذا لايعني ان الصدق والواقعية مقتصران على الجانب الموضوعي فقط اذ قد تحمل الذاتية من الصدق والواقعية قدر ماتحمله الموضوعية ولكن الاهمية الاساسية في المجال العلمي للموضوعية ..

هكذا يتضح لنا ان الفلسفة التأملية لاتملك صفات البحث العلمي مما يجعل منها في كثير من الاحيان مجرد لغو ولغط لا معنى لهما وهذا مادفع اصحاب المنطق الوصفي الى اعتبار الفلسفة التأملية وقضاياها ومشاكلها مجرد خرافة رائجة ، والى اعتبار الفيلسوف مجرد رجل اعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها ..

فاذا اردنا الان ان نعرض لاسلوب « تأملات وجودية» لوجدنا ان التقارب بين الفلسفة والشعر يتجاوز نطاق الافكار ووجهات النظر ، الى الاسلوب ، ففي الكتاب نجد رموزا وعبارات هي اشبه ماتكون برموز وعبارات الشعراء، في « ص ١٨ » نقرأ : « وفي صباح هذا اليوم همست في اذني طلائع الفجر فقالت : لاتنس ان النفس ايضا يجب ان تستعد للعمل بالصمت والسكون ، كما تستعد الارض لنهار العمل بسكون الفجر .. او امام تلك الخيوط الذهبية البديعة التي راحت عيناي تتمليان جمالها ، وجدتني افكر في ذلك النور الالهي الذي هو اشعاع نفاذ واشراق لامتناه ليست منه تلك الاضواء المرئية الا بمثابة صور باهتة واضواء شاحبة » .

وفي « ص ٩٥ » نطالع نموذجا اخر من نماذج هذا الاسلوب : « ان المرء ليغوص احيانا في تأملاته القاتمة فلا يلبث ان يستيقظ على اصوات موسيقى الحياة الصاخبة التي تهزأ بالامه وافكاره وخواطره ، وكأن الحياة غانية سمراء ترقص وتمرح ، محركة اردافها في خفة واستهزاء، كاشفة عن اسنانها البيض ولثتها الحمراء ، مرسلة لطفها ودلالها في الهواء معبرة بعينيها المسدفتين عن كل ماينطوي عليه الحب من سر وجمال وبهاء ! »

ويستمر المؤلف في كلامه قائلا : « وفي وسط تلك الليلة الاشبيلية ، تنبعث اصداء موسيقى راقصة صاخبة تتمايل على انغامها غانيات راقصات باسمات ، تمتد اذرعهن الجميلة في خفة ورشاقة ، وتضرب اقدامهن الصغيرة بالارض فترسل انغاما راتبة ، وتبتسم الغانية السمراء في نشوة ودلال وعدم اكتراث ! انها الحياة ، الحياة العابثة المستهترة ، الحياة المنتشية المليئة بالوعود ، الحياة الفائضة التي تبدد ضباب المستقبل وخوف الموت ! وحينما يمعن المرء النظر في تلك الصورة ، فسرعان ماتبدو له الحياة اسطورة جميلة تمج بالوثنية والخرافة والسحر ! ولكنها ليست اسطورة يرويها احمق ، وانما هي اسطورة تغنيها راقصة اندلسية ساحرة ، وترسلها من خلال عطور ذهبية وانغام سحرية ورقصات دافئة ! »

ولا اظن ان هذه النصوص تحتاج الى تحليل وتعليق حتى توقعنا على الاسلوب الشعري في كتاب الدكتور ابراهيم ..

والان هل من ضير في التقريب بين الفلسفة والشعر! اذا تجاوزنا وجهة نظر هويتهد والفلاسفة التأمليين واخذنا بوجهة نظر المناطقة الوضعيين والفلاسفة التجريبيين فاننا نجد ان الفلسفة بمعناها الشائع اشبه ما تكون بالقصائد الشعرية والاساطير اذ انها تقوم على الشعور والعاطفة .. والفرق الرئيسي بين الفيلسوف والشاعر ـ فيما يقول كارناب ـ هو زعم الاول ان اداته هي البراهين المنطقية والادلة العقلية وتسليم الثاني بان اداته هي الخيال

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث ابوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

والعاطفة ، ولكن الفيلسوف في الحقيقة ليس الا شاعرا ضل سبيله فهو كالموسيقي الذي لايملك اية موهبة موسيقية فيظل عاجزا عن القيام بمهمته ...

وكما ان الشعر لايدخل في اطار العلم ، ولا توجد بينهما اوجه قرابة ، شأنه في ذلك شأن جميع ضروب الفن فكذلك الفلسفة التقليدية التأملية ـ وهي فن ناقص ـ لايمكن ان تساهم في التقدم العلمي .. ولما كانت المهمة الاولى للفلسفة تتلخص ، عند المناطقة الوضعيين ، في خدمة العلم ومسايرة التقدم العلمي بتحليلها للعبارات والالفاظ تمهيدا لاستبعاد الالفاظ الزائفة والعبارات الفارغة وتوضيح الطابع المنطقي للقضايا ، الذي يسهل اقامة علم الواقع على اسس منطقية .. فان في التقريب بين الفلسفة والشعر مايعطل الفلسفة عن اداء مهمتها ..

وليس هذا فحسب بل ان اصحاب الوضعية المنطقية وانصارها ليذهبون الى انه يجب التخلي عن التفلسف بمعناه المعروف ، اذ ان قضاياه تحدثنا عن قضايا فارغة ، واذا عدنا الى تعريف الفلسفة والى موضوعها الرئيسي وهو الميتافيزيقا ، لوجدنا انها حديث عما لا وجود له في عالم الواقع ، ومن هنا كان هذا الحديث ـ عند الوضعيين ـ عبثا لاطائل تحته ..

وهكذا يتبين لنا ان في محاولة التقريب بين الفلسفة والشعر مايشين الفلسفة ويبعد بها عن مهمتها الاصلية ، وما هذا الاسفاف في الفلسفة وما ذلك الابتذال الا بسبب الاغراق في النزعة الشعرية عند الفلاسفة وبالتالي الابتعاد عن اصالتها وحقيقتها ..

الا ان اصحاب المذاهب الفلسفية التأملية ، وانصار الفلسفة التقليدية ، يرفضون هذا الاتجاه الوضعي ، على اعتبار انه يدعى ان بالامكان التخلي عن التفلسف ـ بل بضرورة التخلي عن التفلسف ـ منكرا امكانية التفلسف واهميته ، ولكن ذلك الموقف الوضعي المنطقي ، هو نفسه ضرب من التفلسف بالمعنى الذي ارادته الفلسفة التأملية ، أي ان انكار امكانية قيام الميتافيزيقا لايمكن ان يتم الا بواسطة لون من الوان الميتافيزيقا ، وهذا مايذكرنا بقول ارسطو : لايمكن انكار التفلسف الا عن طريق التفلسف نفسه ..

ويستمر التأمليون في الدفاع عن الميتافيزيقا والفلسفة ، فيقولون ان الفلسفة والميتافيزيقا تعبران عن ميل طبيعي لدى العقل البشري ـ فيما قال كانت ـ وحتى لو قلنا مع الوضعيين ان الفلسفة يجب ان تكون علمية ، فاننا نجد اننا نحتاج الى علم يدرس العلم ، وهذه هي مهمة الفلسفة ، فلا يمكن اذن ان تذهب الفلسفة الى غير ما رجعة ، فان العالم نفسه في مختبره ، يحتاج الى تلك الفروض التي تتجاوز حدود المعطيات الوضعية ، وهذا يؤكد اننا نحتاج الى تعمق مالدينامن تجارب ذاتية ، وامثال هذه التجارب لاتكون بعيدة عن الواقع ، انها ـ كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم ـ لايمكن ان تكون تجارب انفصالية فاننا نستطيع ان نحصل تجربة باطنية عن الواقع باكمله ، كما هو الحال في الفن الذي يكشف لنا عن باطن الاشياء فيجعل ذاتيتها حاضرة امامنا ، او كما هو الحال في الحب الذي يكشف لنا عن اعماق شخص اخر فيسمح لنا بان ننفذ الى صميم ذاتيته .. الخ ..

واخيرا ، لابد لي من الاعتذار لاستاذي الدكتورزكريا ابراهيم ، عما اذا كان في حديثي هذا ما يسيء اليه ..

معن زياده

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت